المقدمة الطللية بين العربية والفارسية

تاريخ استلام المقال: 2015/05/04 تاريخ قبول المقال للنشر 2015/10/29

د.ثامر إبراهيم محمد المصاروة
جامعة الجوف– المملكة العربية السعودية

ملخص:

تعدّ الصلات بين الأدبين العربي والفارسي من الموضوعات الهامة لدراسي الأدب المقارن، ومن هذه الموضوعات المقدمة الطللية بين العربية والفارسية وقد تناول الباحث هذه الصلات بين الأدبين العربي والفارسي، حيثُ خصص المبحث الأول للحديث عن قنوات الاتصال بين الأدبين، ومنها الترجمةبين العربية والفارسية، وأصحاب اللسانين، والعلاقات بين اللغتين العربية والفارسية، وأما المبحث الثاني فخصصه للحديث عن أثر اللغة العربية في اللغة الفارسية، وأما المبحث الثالث فخصصه للحديث عن تأثر شعراء الفُرْس من خلال تقليدهم للشعراء العرب في المقدمة الطللية، وقد عرض البحث نماذج لهذا التأثر. ولقد اعتمد الباحث في بحثه هذا على المنهج الوصفي التحليلي؛ لطبيعة الموضوع وهدف البحث، كما وأفاد الباحث من عددٍ من المصادر والمراجع، ومنها مختارات من الشعر الفارسي، ودراسات في الأدب المقارن، ومقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي.

Abstract :

The relationship between the Arab and Persian literatures is considered to be one of the important topics to students of comparative literature. One of these topics is ruin introduction between Arabic and Persian. The researcher tackles these relationships between the Arab and Persian literatures. The first section is devoted to talk about the communication channels between the two literatures, including translation between Arabic and Persian, and the owners of the tabs, and relations between the Arab and Persian languages. The second section is allocated to talk about the impact of the Arabic language on the Persian language. The

third section allocated to talk about poets influenced by the Persians through the tradition of Arab poets in the ruin introduction. The study offers models for this influence. The researcher has adopted on his research on descriptive analytical method in accordance to the nature of the subject and the aim of the research. The researcher also benefited from a number of sources and references, including a selection of Persian poetry, and studies in comparative literature, and an introduction Arabic poem in pre-Islamic era.

مقدمة:

تعدّ المقدمة الطللية السمة الأبرز والعلامة الأوضح للشعر العربي بمجمله، فقد أصبحت من الأصول التي تعارف عليها الشعراء الجاهليون ومن جاء بعدهم من الشعراء عبر العصور المتعاقبة، فتجد قصائدهم بشكلٍ عام لا تخرج عن الصورة العامة لتلك المقدمات التي جاء بها الشعراء في العصر الجاهلي.

فقد جاءت المقدمات الطللية ضمن أشكال مختلفة ومتعددة عبر العصور المتعاقبة، نجدها أولا عند الجاهليين بصورة واضحة جلية على المستويين الفني والحقيقي، ثم بدأت تنحسر في العصر الأموي وأصبحت تعتني بالجانب النفسي إلى حدٍ ما، إلى جانب التركيز على الجانب الفني منه في العصور السابقة، أمّا في العصر العباسي فبدأت المقدمة بين مؤيد ومعارض، فهناك من ذكرها وألحّ بطلبها، وهناك من عارضها وخرج في قصيدته عن تلك المقدمات، أما في عصرنا الحديث فتبيّن الشعراء لها كذلك بين مؤيد ومعارض.

ولم يتوقف التأثر والإعجاب بتلك المقدمات على العصور في الأدب العربي فقط، وإنما تجاوز صداها في الآداب الأخرى من مثل الأدب الفارسي، وجاء هذا البحث المتواضع ليلقي الضوء على أثر تلك المقدمة الطللية العربية في الشعر الفارسي، وخاصة أنه كانت بلاد العرب قبل الإسلام وثيقة الصلة ببلاد فارس، وكانت (الحيرة) مملكة المناذرة حلقة الاتصال بين العرب والعجم، وبعد الإسلام بلغت صلة العرب بالفرس منتهاها، بعد إن دخل الإسلام بلاد فارس، وامتزجت

الثقافة العربية بالثقافة الفارسية.

وكان لهذا الاتصال بينهما سواء أكان قبل الإسلام أم بعده، الأثر الواضح في التأثر والتاثير بين الأدبين العربي والفارسي، ومن بينها المقدمة الطللية، وجاء البحث ضمن أربعة محاور رئيسة، فالمحور الأول تحدث عن الصلات بين الأدبين العربي والفارسي، أما الثاني فخصص للحديث عن قنوات الاتصال بين الادبين، وجاء الثالث للحديث عن الموضوعات المشتركة بين العربية والفارسية، اما المحور الأخير فخصص للحديث عن المقدمة الطللية بين العربية والفارسية.

وقد اعتمدتُ في بحثي هذا على المنهج التاريخي التحليلي؛ وذلك لطبيعة الموضوع وهدف البحث من إثبات الصلات التاريخية بين الأدباء وبين النصوص الأدبية، كما وأفاد من عددٍ من المصادر والمراجع، ومنها مختارات من الشعر الفارسي، ودراسات في الأدب المقارن، ومقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، وغيرها الكثير التي أفادت البحث بمادته وطرحه المتواضع.

أولاً: الصلات بين الأدبي العربي والفارسي:

إنّ القواسم المشتركة بين الأدبين العربي والفارسي إنما انبثقت من التمازج المشترك بين الشعبين العربي والإيراني منذ العصور التاريخية ثم ازدادت احكاماً وارتقاءً حضارياً بعد الإسلام؛ إذ دخل أبناء الفُرْس فيه طوعاً وإرادةً ورغبةً، وانصهروا في بوتقة تعاليمه، ومبادئه، وعملوا على نشرها ... ولما كانت العربية لغة القرآن، والدين الجديد الذي اعتنقوه أقبلوا على تعلمها وإتقانها كأهلها[1].

ويشير بديع جمعه إلى أنّ العلاقة «بين هذين الأدبين قديمة قدم العلاقات التاريخية بينهما، فقد بدأت هذه العلاقات الأدبية قبل الفتح الإسلامي، حتى قال

1- ينظر: د. حسين جمعة، من القواسم المشتركة بين الأدبين العربي والفارسي، مجلة فصلية، دمشق، العدد 97، سنة 2005م، ص 15.

البعض إنّ الأدب الإيراني القديم كان أول أدب أجنبي اتصل به الأدب العربي، وبخاصة في منطقة الحيرة حيث كانت مجالاً خاصاً لرواج الأدبين»[1].

وإن التاريخ ليسجل وجود علاقات سياسية وروابط تجارية واجتماعية بين هذين الشعبين قبل ظهور الإسلام بقرون؛ ذلك لأن المجاورة الاقليمية تستتبع وجود صلات بمختلف ظروبها، وهذه الصلات تقتضي وجود صلات لغوية وأدبية بينهما.

وعليه يؤكد الدكتور حامد عبدالقادر «إن العلاقة أو الصلة بين العرب والفرس قد بغلت منتهاها من القوة بعد أن دخل الإسلام بلاد إيران، وامتزجت الثقافة العربية بالثقافة الإيرانية، وتكوّنت منهما ثقافة إسلامية واحدة، موطدة الأركان، شامخة كان للمسلمين من الفرس في بنائها النصيب الأوفر»[2] .

كما ويشير بديع جمعه إلى أنّ هناك قنواتِ اتصالٍ بين هذين الأدبين تمثلت في العلاقات بين اللغتين العربية والفارسية، والالتقاء بين الثقافتين العربية والفارسية، وتأثير التراث العربي في إيران، بالإضافة إلى أصحاب اللسانين وهم الأدباء الإيرانيين الذين ألُّفوا إنتاجهم باللغتين العربية والفارسية، كذلك حركة الترجمة بين اللغتين، وهي من عوامل الاتصال الهامة والمستمرة حيث الجهود الضخمة التي بذلها المترجمون في نقل العديد من كنوز كل لغة إلى اللغة الأخرى، ومن عوامل الاتصال الأخرى كذلك الرحالة وهي نتيجة للحوار الجغرافي بين البلدين، والعلاقة التاريخية الوطيدة بين الشعبين[3].

ويمكن القول إنّ العربية بتراثها على اختلاف مناحيه، وبكل أصوله وفروعه كانت حجر الرحى في تكوين ثقافة الفارسي عالماً كان أو أديباً، فالدارس للعربية

1- ينظر: د. بديع جمعة، دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت ،ط2، 1980، ص70.

2- حامد عبدالقادر، قصة الأدب الفارسي، مكتبة نهضة مصر، ط1، د.ت، ص 5 .

3- ينظر: بديع جمعة، دراسات في الأدب المقارن، االمرجع نفسه، ص70.

والفارسية يجدُّ الاتصال بينهما واضحًا؛ وذلك بحكم الجوار والتجارة والرحلات وكذلك الحروب والمخالفات السياسية بينهما في العصور القديمة، فكانت تلك وسيلة التأثر والتأثير بينهما، يستطيع دارس الأدب المقارن الوقوف عليها؛ ليتبيّن الأثر بينهما.

قنوات الاتصال بين الأدبين.

أولاً: (أ) الترجمة بين العربية والفارسية.

للترجمة أثرٌ كبير في نقل المعرفة بين الأدبين العربي والفارسي، «فالترجمة تفضي إلى اتحاد فكري واندماج روحي وفي هذا ما فيه قوة الربط بين منَ ترجم عنهم ، ومن ترجم لهم»[1].

والترجمة بين العربية والفارسية قديمة جداً، إذ كانت البهلوية (الفارسية الوسطى)، ثم الفارسية الإسلامية (الدريّة الحديثة) من أكبر منابع الترجمة ومصادرها إلى العربية. وقد أثبت ابن النديم – فيما أثبت من فهارس – "فهرساً" بأسماء المترجمين من الفارسية إلى العربية، من مثل، ابن المقفع، والحسن بن سهل، وآل نوبخت. ونشط الدكتور محمد محمدي، في الستينات، أيام كان مستشاراً ثقافياً لإيران ببيروت ورئيساً لقسم اللغة الفارسية وآدابها بجامعتها اللبنانية، في جمع "ما نُقِل من الآثار الأدبية الفارسية إلى اللغة العربية في القرون الإسلامية الأولى، وخاصة في أوائل العصر العباسي، مما امتزج بالأدب العربي حتى أصبح جزءاً منه"، وأصدر الجزء الأول من "الترجمة والنقل عن الفارسية – في القرون الإسلامية الأولى" الذي أفرده لكتب "التاج" و"الآيين" بعد أن جمع ما تناثر في

1- ينظر: د.حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفُرْس والترك، ، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2001، ص99.

المصادر العربية الإسلامية بشتى أنواعها[1].

لقد غدت الترجمة ثورة عظيمة الأثر على مختلف المستويات والأصعدة الثقافية والأدبية والعلمية وغيرها، وشكّلت جسراً للتواصل مع الثقافات المختلفة والحضارات المتعددة؛ إذ إن الترجمة التي تشّكل فيها الكلمة الركن الأساس تلعب دوراً مهما في تلاقح الأفكار وتثاقفها، والتفاعل والحوار مع الثقافات واللغات الحية، والشعوب والأمم الناطقة بهذه اللغات في شتى مناطق المعمورة، في ظل العولمة وما نعيشه من تسارعات كبيرة جداً في هذا العصر؛ فالترجمة إبداع حيوي، وتزاوج فكري، وتبادل ثقافي، وعطاء أدبي، ومشاركة علمية، وظاهرة تدعونا إلى التفاعل الايجابي مع ثقافات الشعوب الأخرى، ومحاولة فهم ما لدى الآخرين من أفكار ومعارف؛ وهي التي حفظت التراث العالمي من الضياع والاندثار والآفات الأخرى، ولا شك أن إقامة العلاقات والتفاهم مع الثقافات والحضارات الأخرى من بين الأهداف التي تسعى الترجمة لتحقيقها، ومن ثمّ فإن الترجمة وسيلة لتبادل الثقافات ونشرها، وتعانق الحضارات والتقائها –لا تنافرها وصراعها – والإطلاع على ما لدى الآخرين من فكر وثقافة.

فالجهود الضخمة التي بذلها المترجمون في نقل الكثير من كنوز اللغة أتاحت للفُرس الذين لا يحسنون اللغة العربية فرصة للاطلاع على ثقافة الأمة العربية، كما أتاحوا للعرب الذين لا يجيدون اللغة الفارسية فرصة الاطلاع على هذا الأدب، مما مهّد أن تكون اللغتان أداتين التعبير عن صور وأفكار وحقائق مشتركة بين اللغتين.

ثانيًا: (ب) الالتقاء بين الثقافتين العربية والفارسية.

إنّ هناك مظاهر الالتقاء بين الثقافتين العربية والفارسية؛ وذلك نظراً للظروف

[1] – ينظر: د. يوسف حسين بكّار، محاضرة بعنوان: من مزالق الترجمة بين العربيّة والفارسيّة، جامعة اليرموك، الأردن .

البيئية المتشابهة، وكذلك علاقات الجوار بين الحضارتين ومن هذه المظاهر الفلسفة الإسلامية بشقيها الفارسي والعربي، وكذلك الاهتمام بمعالجة موضوعات بعينها مثل: قصة ليلى والمجنون[1]

1- أمثال: فخرالدين كركاي في قصيدته (بوسس ورامين)، ينظر: حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، ص 202.

ووصف رمضان وشوال[1]، وأيضًا الاهتمام بالخرافات والأساطير والملاحم مثل: العناية الكبرى التي حظيت بها كتب الأساطير والحكايات في الأدبين العربي والفارسي، ككتاب كليلة ودمنة وكتاب ألف ليلة وليلة، ومن المظاهر أيضًا الوقوف على الأطلال في كل من الأدبين، وما يتبعه من مظاهر كالبكاء على فراق الأحبة[2].

ومنذ بداية القرن الثالث الهجري وقيام الدويلات الفارسية المستقلة بدأ الفرس يحاولون تقليد العرب في أشعارهم ويستعينون باللغة العربية ومفرداتها وتعابيرها، ويقتسبون من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، كمّا قلّدوا العرب في بحور الشعر واستحدثوا منها صورًا وأخيلة.

ويرى الباحث أن تلك المظاهر أدلة كافية على الالتقاء والتواصل بين الأدبين، كما لها الدور الأكبر في التأثر والتأثير بينهما، وهذا ما نبحث عنه في ما يسمى بالأدب المقارن.

ثالثًا: (ج) أصحاب اللسانين[3].

كانت الصلة بين العرب والفُرْس في مظهر لُغويٍّ أدبيٍّ هو التقاء الفارسية والعربية جميعاً في ألسنة بعض من شعراء وبلغاء الفُرْس يعرفون بأصحاب اللسانين؛ لأنهم عبّروا بالفارسية والعربية ، وبذلك تواكبت اللغتان وارتبطتا بثقافة إسلامية موحدة لم تكن تتغاير جوانبها ألّا في الصورة ولا شك أنّ هذا قرّب بين

1- أمثال: أسامة بن منقذ ومجدالدين وغيرهم، ينظر: حسين مجيب المصري، رمضان في الشعر العربي والفارسي والتركي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964م، ص 25 .

2- ينظر: د. حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، المرجع نفسه، ص80ـ 82 .

3 - هم العلماء الذين يعرفون اللغتين، إذ كتبوا في العربية والفارسية، وهم من أصل فارسي، ومنهم: ابن مسكويه، وابن سينا، والغزالي، والرازي، والتبريزي وغيرهم الكثير .

اللغتين[1].

أمّا السببُ في تأليف هؤلاء الأدباء باللغتين العربية والفارسية فهو «لانّ الثقافة العربية كانت حتى أوائل القرن الحالي ضرورة لأيّ أديبٍ، بل لأيِّ متعلمٍ في إيران، ولهذا أصبح من الميسور على بعض من أجادوا علوم العربية من الإيرانيين، أن يؤلفوا كتباً أو قصائد باللغة العربية إلى جوار مؤلفاتهم باللغة الفارسية»[2].

ويذهب الباحث مع الرأي السابق؛ لأنه من المعروف في عصرنا الحديث بأن الثقافة متطلبٌ ضروريًا لأيّ أديبٍ كان، ومن الطبيعي وجود مؤلفات لهؤلاء الأدباء لأنهم أجادوا اللغة العربية وجاء هذا من باب المعرفة والثقافة.

ويرى عبدالوهاب عزام في صدد هؤلاء إلى القول: «وأحسن مقياس في هذا أن نعمد إلى جماعة ممن ألفوا باللسانين لنرى مؤلفاتهم العربية أكثر وأعظم من الفارسية، ولا أحسب الأمر يحتاج إلى عناء، فيكفينا أن نذكر الغزالي فنحن نعرف مؤلفاته العربية وليس له في الفارسية إلا رسالتان.... »[3].

وعليه فإن أصحاب اللسانين من أهل إيران قد كانوا على دراية واضحة بالعربية؛ ولهذا جاءت دراساتهم في العربية أكثر من الفارسية، فيدّل ذلك على الأثر الواضح لهؤلاء الجماعة للانتقاء والرقي بين هاتين الثقافتين.

رابعًا: (د) العلاقات بين اللغتين العربية والفارسية.

بعد أن فتح المسلمون بلاد الفُرْس زادت الصلات بين اللغتين العربية والفارسية حيث انتشرت اللغة العربية في بلاد فارس، فبعد أن اعتنق الفُرْس

1- ينظر: المرجع السابق، ص115 .

2- ينظر: بديع جمعه، دراسات في الأدب المقارن، المرجع نفسه، ص84.

3- عبدالوهاب عزام: الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهية والإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ط1، 2012م، ص 59 .

الإسلام أصبحوا في حاجةٍ ماسَّةٍ لتعلّم اللغة العربية؛ ليتمكنوا من قراءة القرآن الكريم وكذلك تأدية الصلاة كما حرص أدباء إيران على التأليف بالغة العربية ؛ لما لها من انتشار واسع، بل هؤلاء الأدباء حرصوا على إجادة اللغة العربية والتخصص في علومها[1].

فالإسلام كان خيرًا لبلاد فارس، إذ كان المعين الذي لا ينضب للغتهم وديانتهم، والذي وحّد صفوفهم ولمّ شتاتهم وزودّهم بكل معاني الخير والنصيحة والرفعة والسمو، علاوة على أنه أغنى لغتهم (الدّرية) بنظم جديد يألفونه ويتخذونه في تأليف أضرب الأدب المختلفة.

وهناك عواملٌ أدّت إلى سيادة اللغة العربية في بلاد فارس، ومنها أنّ اللغة العربية لغة أصحابِ السلطانِ والخلفاء والأمراءِ، ولابُدَّ لمن يريد المكانة عندهم أن يتعلم لغتهم، أما العامل الثاني فهو هجرة بعض القبائل العربية إلى بلاد إيران وخاصة في وسط البلاد وشرقها، وكذلك كانت اللغة العربية هي لغة التدريس في المدارس التي أُنشئت في إيران لتدريس العلوم الدينيةِ والأدبيةِ حيثُ أقبل الناس على تعلّمها[2].

ويشير محمد غنيمي هلال إلى أنّ « لغة الأدب الفارسي الجديد نشأت في حضانة اللغة العربية ووصيتها»[3]، حتى الخط العربي دخل إلى إيران مع الجيوش العربية الفاتحة، وأخذ ينتشر بين الإيرانيين بسرعةٍ لأسباب سياسيةٍ، واجتماعيةٍ، ودينيةٍ، كما كانت اللغة الفارسية تحتوي على أصواتٍ ليست موجودة في اللغة العربية فقد عمد الفُرْس إلى ابتكار رسمٍ يُناسب تلك الأصوات.

1- ينظر: د. بديع جمعة، دراسات في الأدب المقارن، المرجع نفسه ص70-71 .

2- ينظر: محمد وصفي أو مغلي، دراسات في اللغة والشعر والنثر الفارسي، مطبعة جامعة البصرة، د.ط، ص29.

3- محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1965، ص7.

ويرى الباحث من خلال ما تقدّم ذكره إلى أن الاستعمار كان أحد عوامل الاتصال بين الأدبين العربي والفارسي، وأدخل كثيراً من العلوم لكلٍّ من الأدبين، وخير مثال على ذلك الخط العربي.

هذه بعض القنوات التي ساهمت في الاتصال بين الأدبين العربي والفارسي، حيث أوجدت مجالاتٍ واسعةٍ ومظاهرَ كثيرةٍ للتأثر والتأثير بين الأدبين العربي والفارسي، وأصبحت هذه المظاهر وغيرها مجالاً للعديد من الدراسات الأدبيّة المقارنة بين الأدبين.

ثالثًا: أثرُ اللغة العربيةِ في اللغةِ الفارسيةِ

بعد سقوط الإمبراطورية الساسانية في يد المسلمين لم تعد اللغة البهلوية لغة الفرس الرسمية، بل خلفتها لغة الفاتحين، ولقد أدار الكل ظهره للغة السابقة، وتبني اللغة العربية لغة رسمية لمكاتباتهم[1] .

كان لدى العرب – زمن الفتوحات – نوعان من الخطوط هما: الخط الكوفي، وخط النسخ، وقد استعملوا أولهما – في أزمنةٍ لاحقة– في كتابة المصاحفِ، وتزيين المساجدِ، والقصور وغير ذلك، بينما أُستعمل خط النسخ في الكتابات الأخرى، مثل :كتابةُ الرسائلِ والكتب العلميةِ والأدبيَةِ وغيرها.

وكان الخط العربي في البداية دون تنقيطٍ، ودون تشكيلٍ بالحركات، ولكن علماءُ اللغةِ أخذوا في العنايةِ بالخط؛ لتجميله وتسهيله، وبالتالي لتسهيل القراءةِ والكتابةِ به، وبخاصّة أنّ شعوباً من غير العربِ صارت بحاجةٍ إلى اللغة العربية؛ لانتشار الإسلام بينهم ،ولذلك وُضعت النقط لبعض الحروف؛ لتمييزها عن بعضها مثل "ب، ت، ث، ج، خ، ....الخ" كما وُضعت حركات الفتحة والضمة والكسرة؛

1- ينظر: أحمد محمد الحوفي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1986م، ص 84 وما بعدها .

لإظهار كيفية النطق بالكلمات، واعتنى الخطّاطون بصورةِ الحرفِ نفسه، حتى وصلتْ الخطوطُ العربيةِ إلى مراحلَ راقيةٍ من زاويةِ الزَّخرفةِ[1].

وعلى الرغم ما عُرف عن بعض الفرس من التعصب الشديد إزاء نزعتهم الفارسية ومحاولة استحداث لغة فارسية حديثة (الدّرية) في نهاية القرن الثاني الهجري، إلا أن العربية بقيت واضحة الأثر في آثارهم ومكاتباتهم المتعددة، كما يشير محمد نور عبدالمنعم إلى أنها «ما زالت حروفها مستمدة من الحروف الهجائية العربية التي تجاوزت نسبتها السبعين بالمائة»[2].

عليه فقد كانت اللغة العربية لغة العلم والدين في بلاد فارس منذ الفتح الإسلامي، حتى ترعرت ونشأت اللغة الفارسية الحديثة والنتعاقبة عبر العصور، وصارت لغة علم ودين معتمدة كليًّا على الألفاظ والعبارات والدلالات العربية منذ زمن بعيد.

رابعًا: الموضوعات المشتركة بين العربية والفارسية

هناك الكثير من الموضوعاتِ المشتركةِ بين العربيةِ والفارسيةِ، من مثل: المزج بين الممدوح والطبيعة بأشكال وصور مختلفة، وكذلك موضوعي المدح والغزل. «ولعلّ موضوعُ وصفِ الطبيعة الجامدةِ والمتحركةِ، ووصف الممالكِ الزائلة، والأطلالُ الدراسةِ من الموضوعات المشتركةِ والمهمةِ بين الأدبيّن العربي والفارسي، وتطوّر موضوع الوصف للأطلال في العصر الجاهلي إلى وصف الآطام، والحصون، والقصور الخربة كإيوان كسرى، والصروح الرومانية القديمة، أو الآثار الإسلامية التي تهدمت وغدت موضوعات الوصف في هذا الاتجاه تحمل

1- ينظر: د. بديع جمعة، دراسات في الأدب المقارن، المرجع السابق ص30-31.

2- محمد نور عبدالمنعم: دراسات في الشعر الفارسي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1976م، ص 13 وما بعدها .

بُعداً عاطفياً ذاتياً ووطنياً في بعض الأحيان»[1].

والدارس للعربية والفارسية سيجدُّ التأثير بينهما واضحًا لا على مستوى الموضوعات فحسب، وإنما انتقل نظام القصيدة العربية من العربية إلى الفارسية بموسيقاها من التزام قافية واحدة في القصيدة كلّها، وبموضوعاتها الغنائية من مدح وهجاء وحماسة ووصف وغزل، كما انتقل الجنس الأدبي للقصيدة الفارسية بقالبها الفني الذي عكس التأثير العربي على الفارسية، وكذلك جاء التأثير في الأخيلة والصور وبناء القصيدة العام كما في أدبنا العربي، وهذا ما تستوحيه العلاقات المشتركة بين الادبين[2].

خامسًا: المقدمة الطللية بين العربية والفارسية

(أ): نشأة المقدمة الطللية في الشعر العربي

إنّ الصورة العامة للمقدمةِ الطللية كما ظهرت عند شعراءِ المرحلةِ الأولى صورةً طبيعيةً بسيطةً غير معقدةٍ دون تدخلٍ واضح من الشعراء في تسجيلها، وهذه الصورة لم تكن صورةً ثابتةً جامدةً عند شعراء هذه المرحلةِ، ولكن كانت صورةً عامةً تختلفُ من شاعرٍ لآخر في التفاصيلِ والجزيئاتِ.

ولو أنمعنا النظر في المقدمات الطللية بشتى ظروبها وأنواعها لوجدناها تدور في فلك معاني الشوق والحب والحنين للماضي المندثر، فإذا بها يتذكر الإنسان تلك الذكريات الخالية والأيام الجميلة، فتصبح نقطة ارتكاز في ذهنه للحديث عنها، حتى جرّت العادّة بعد ذلك لتصبح الطابع الرسمي الذي يغلب على القصيدة الجاهلية، والتي سار عليها الشاعر الجاهلي بكلّ ذكرياته التي وقف واستوقف عليها.

1- محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، المرجع السابق، ص8 .

2- ينظر: محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مكتبة الأنجلو المصري، القاهرة، ط4، 1962م، ص 288.

وبشأن أول من وقف على الطلل اختلفت وجهات النظر حول ذلك، فمنهم من قال امرؤ القيس، ومنهم من قال أن ابن حذام سبقه في ذلك، ونكتفي بذكر قول ابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات الشعراء): «فاحتج لامرئ القيس من يقدّمه، قال ما لم يقولوا (أي الشعراء)، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، استحسنها العرب، واتبعته فيها الشعراء، منها: استيقاف صحبه، والبكاء في الديار، ورقة النسيب»[1].

وعلى هذا يبني الدكتور عزة حسن إلى القول: «سار الشعراء الجاهليون منذ امرئ القيس على ابتداء قصائدهم بالوقوف على الأطلال، والبكاء على الديار، والاستطراد إلى وصفها، وجعلوا من ذلك (شبه قاعدة فنية)، لا يخرجون عليها إلا في أحوال نادرة، ويبدو لنا أن (الوسيلة الفنية الكبرى) لافتتاح القصائد عند الشعراء هو التغزل بالمرأة المحبوبة، وأن الوقوف على الديار والبكاء على أطلالها (وسيلة فنية صغرى)، يقدمون بها بين يدي هذا الغزل نفسه في أغلب الأحيان» [2]، إذن فالشعراء الجاهليون هم أول من دأبوا في الوقوف على الأطلال ووصف ملامحها، وبعد ذلك اتبعهم الشعراء الاسلاميون في ذلك، ثم سار الشعراء العباسيون، وهكذا ظل الوقوف على الأطلال معلمًا بارزًا في الشعر العربي بمجمله.

أمّا المرحلةُ الثانية فكانت محاولةً ناجحةً من قبل شعراء هذه المرحلةِ؛ للنهوض بفنّ الشعرِ وصناعة هذا الشعر، والخروج به من نطاق التعبير المباشر والتسجيل السريع إلى الروايةِ، والأناة والتمهل من أجل التجويدِ والتهذيب، والصقل، والاحكام، ويمثل لهذه المرحلة (زهير)، حيثُ يرسم في هذه منظرين أساسيين، هما منظرُ الأطلالِ في صمتها وسكونها، ومنظرُ صاحبةِ الأطلالِ في رحلتها المتحركةِ

1- ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص 46.

2- د. عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث "دراسة تحليلية"، دمشق، ط2، 1986م، ص 13.

في الصحراءِ[1].

أمّا المرحلةُ الثالثة فقد أخذتْ المقدمةُ الطللية تتحول إلى مقدمةٍ تقليديةٍ، فكانت تقاليدُ القصيدةِ العربية قد استقرت لها، وكانت هذه المقدّمات قد اتضحت في اذهانِ الشعراء، ومنها مقدمة لمعلقته، فقد كانت طريقة العرض واحدة، أمّا الاختلافُ فكان بين التفاصيل الداخلية[2].

ويتميّز الطلل «بحضوره القوي في ذاكرة الشاعر والمجتمع العربي آنذاك؛ لأنه اكتسب خاصيتين مهمتين في وجدانه هما: الشعور بالألفة، والشعور بانقضائه، أيّ إنه زمان ماضٍ لا يعود، وهو جزءٌ حيوي من ذكريات الشاعر الخاصة»[3]، فيغدو الشاعر "مسكونًا بالذكرى زمانًا ومكانًا، وهذا ما يجعل اللحظة الطللية تعبّر عن (الشذرات المضيئة) التي تصلنا بواقع ومكبوتات المجتمع الجاهلي الذي كان يعاني منها»[4]، وهذا يقودنا إلى القول إن الطلل أصبح الصبغة المرسومة في ذاكرة الشاعرة بتفاصيلها الدقيقة، وكأنه الجزء المسكون في حياته الخالية، إذ لا بدّ من الوقوف عليه بتجلياته المختلفة كلّ حسب طريقته الخاصة.

ويرى حسين عطوان أنّ «المقدّمات جميعًا لا تعدو أن تكون ذكريات وَضَرْباً من الحنين إلى الماضي والنزاع إليه، فإنّ الشعراء دائماً يرتدون بأبصارهم وأنظارهم إلى الوراء، إلى أغلى جزء مضى وانقضى من حياتهم، يوم أن كانوا في ريعان

1- ينظر: د.حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، ، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987 ص229.

2- ينظر: د.حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، المرجع السابق، ص230 .

3- علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1981م، ص 229.

4- يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، بيروت، ط4، 1985م، ص 118. للاستزادة ينظر: د.علي الزبيدي أثافي الطلل "دراسات في الشعر العربي القديم، دار بغداد، بغداد، ط1 ، 2014م، ص136.

الشباب لا همّ لهم ولا شيء يشغلهم سوى العكوف على اللهو والمتعة، وهو جزء زاخرٌ بالذكرياتِ، ذكرياتُ الحبِّ وأيّامهِ الخاليةِ، وذكرياتُ الشبابِ بما فيّه من فروسيةٍ وفتوةٍ»[1].

ويوافق الباحثُ رأي حسين عطوان في شقّه الأولِ، بينما يعارضه في شقه الثاني؛ لأن ذكرياتُ الحبِّ والأيامِ الخاليةِ، وذكرياتُ الشبابِ وغيرها ما هي إلا جزءٌ لا يتجزأ من حياةِ الشاعرِ، وهي أساسيةٌ في حياتهِ اليومية وليست من بابِ اللهوِ والمتعةِ فقط.

فالمقدمةُ الطللية هي أكثر المقدّماتِ شيوعاً في صدور القصائدِ الجاهليةِ، فقد كان الشاعرُ يقف عند معاهدَ صاحبتهِ، فيرى تلك الآثار الداثرة قد تبدلتْ من الحياةِ إلى الموتِ، ومن الحركةِ إلى السكونِ، إلا أنهم اعتادوا أن يسألوها عن أهليها وساكنيها، واستطاعوا بصورهم لها أن يستطنقوها، إلا انها بقيت صامتة عاجزة عن الكلام.

أما في المقدمةِ الغزليّة فقد أدار الشاعر الحديثَ حول موضوعيّن أساسيين: بُعد المحبوبةِ وما خلَّفه له نأيها من أشجانٍ وأحزانٍ يعيش لها وعليها، والعودة إلى اللحظات بلّ الساعات التي تمتع فيها بقرب المحبوبةِ منه، والتقائها به ومواصلتها له، وكيف كانت تعجبه وتصبيه فزعًا وجزعًا شديدين من الفراقِ المشئومِ، وتفطّرت نفسه وغرق خدّه في سيول من الدموع، وليس من شك في أنّه لم يفسح العَبرات إلّا تفجُّعاً على حبِّه الداثر في الأيام الماضية[2].

ونلحظُ مما سبق أن المقدمة الغزليّة التي جاء بها الشاعر مقدمةً مليئةً بالحزنِ والحنينِ والشوقِ الفاطر على المحبوبةِ، وهذا يقودنا إلى القولِ بأنها مقدمةٌ حيةٌ وليست جامدة غرضها التقليد، وأرى ما يراه حجازي، حيث يقول: «إنّ وصفَ

1- د.حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، المرجع السابق، ص231 .

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 232 وما بعدها .

الأطلالِ أو ذكرِ الديارِ الذي جاء به الشعر الجاهلي لم يكن مجرد صورًا تقليديةً جامدةً لا حسّ فيها ولا حياة، قد ماتت فيها نضارةُ الإحساسِ وجسارة الإدارةِ الواعية، ونبضُ القلبِ اللهيف، لذلك إننا نقول إنّ الوقوفَ على الأطلالِ وذكرُ الديارِ في الشعر الجاهلي دلالةُ إحساسٍ صادقٍ بالحياة وغضارتها»[1].

سادسًا: الأطلال بين العربية والفارسية

يقول ابن قتيبة: «وللعرب شعر لا يشركها أحد من الأمم والأعاجم فيه على الأوزان والأعاريض والقوافي والتشبيه ووصف الديار والآثار والجبال والرمال والفلوات وسرى الليل والنجوم، وإنما كانت أشعار العجم وأغانيهم في مطلق من الكلام "منثور" ثم سمع بعد قوم منهم أشعار العرب وفهموا الوزن والعروض فتكلفوا مثل ذلك في الفارسية وشبهوه بالعربية»[2]، وعليه فقد اقتبسوا شعراء الفرس شكل القصيدة العربية ومضمونها، وعلى شكل المعلقات كذلك، وأخذوا الكثير من علم العروض ومصطلحاته عند العرب.

القصيدةُ العربيةِ كانتْ تبدأُ عادةً بالبكاءِ على الأطلال والنسيبِ ثم ينتقلُ الشاعر بوساطةِ بيتِ الانتقال إلى الغرض الأصلي من قصيدته، سواءٌ أكان الغرضُ مديحاً أم هجاءً أم رثاءً ... الخ، مع الالتزامِ بوحدة القافيةِ في الأبيات جميعها بالإضافة إلى صدرِ البيت الأول الذي أوجبوا توحيد قافيتهِ مع قافيةِ العجُز.

ونلحظُ أن هذه الخصائص قد التزم بها الفُرْس، فصارت القصائدُ الفارسيةِ تبدأُ بالبكاءِ على الأطلالِ والنسيب، ثم ينتقلُ الشاعر إلى الغرضِ الأصلي بوساطةِ بيتٍ يسمّى بالفارسية (كريزكاه) أي المهرب، وهو بيتُ الانتقالِ عينه في العربيةِ

1- محمد عبد الواحد حجازي، الأطلال في الشعر العربي دراسة جمالية، ، ط1، 2001، ص198 .

2- أبو عبدالله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 20/1.

.[1]

وإذ ما رجعنا إلى القصائدِ في الجاهلية، نقفُ عند معلقةِ امرئ القيس، حيث يقول في معلقته المشهورة[2]:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ
فتوضحَ فالمقراةِ لم يَعْفُ رَسْمُهَا لما نسجتها من جنـوبٍ وشـــمألِ
ترى بَعرَ الآرامِ في عرصاتِها وقيعانها كأنّه حَـــبُّ فُلْفُلِ
كأني غداةُ البــينَ يوم تحمّلوا لدى سَمَراتِ الحي نَاقِفُ حَنْظَلِ
وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون لا تهـلك أسىً وتجمَّلِ
وإنّ شفـــائي عَبرةٌ مهــــراقةٌ وهل عند رسمٍ دارسٍ من معوَّل؟!

يبدو أن امرأ القيس قد وقف على الأطلال وألحّ في البكاءّ، فقد عبّر بوساطةِ هذه المقدّمة عن حزنهِ الشديد على أيامه الماضيه وذكرياته الخالية، فيشتدّ به الشوق والحزن، وألمهِ على فراق محبوبتهِ، وقد جاءتْ هذه المقدمةُ بعيدةً عن الخيال وأقربُ إلى الواقعِ والحقيقةِ، كما أن الشاعر لا يغفل عن ذكر تفاصيل دقيقة للطل الخالي والبالي، فكيف لا يتطرق لمثل تلك التفاصيل والجزئيات الدقيقة له وهو ساكنٌ في ذهنه وقلبه وخياله.

وهناك الشاعر (مُعزّي أبو عبد الملك النيسابوري)[3]، وهو شاعرٌ فارسيٌّ،

1- ينظر: محمد وصفي أبو مغلي، دراسات في اللغة والشعر والنثر الفارسي، المرجع نفسه، ص42.

2- ينظر: أبو عبدالله الزوزني، شرح المعلقات السبع، معلقة أمرؤ القيس، مكتبة المعارف، بيروت، 1985م، ص4.

3- هو أمير الشعراء أبو عبدالله محمد بن عبدالملك المعزى النيشابوري من شعراء العصر السلجوقى العظام، ت 520هـ/1126م .

فيقول في قصيدتهِ (وقفة على الديار)[1]:

يا حَادِيَ العِيس، لا تقف بمنزلٍ حتى تبلغَ ديارَ الحبيبِ،

كي انتحبَ باكياً على الرَّبعِ والأطلالِ والدِّمَنِ؛

أَملأُ الربعَ من دم دَمِ القلبِ، فأجعلُ تربة الدِّمَنَ قانيةً،

وأُفيضُ من دماءِ دموع عيني ما يشبهُ نهر جيجون.

من طلعةِ الحبيب أَرى خيمةَ الإيوانِ خاليةً،

ومن قامتِه كالسروةِ الفارعةِ أَرى المُرُوجَ مهجورةً.

تضعُ حُمُرُ الوحشِ أقدامَها

حيثُ كانت الكأسُ المُترعَةُ وجامُ الخمرِ،

وقد حلَّ نعيقُ الغربان والزاغان

محل القيثارِ والناي والطبولِ.

فالشاعرُ يقفُ على أطلالِ المحبوبةِ منادياً على صاحبه أو صاحبيه فيطلب منه أو منهما الوقوف على تلك الديار والدمن كما وقف وأن يبكيا كما بكى؛ لعلّ هذا البكاء يخفف عنه وطء أحزانه وأوجاعه إزاء تلك الديار التي مالت للهلاك، وهذا ما فعله امرؤ القيس في وقوفه السابق على تلك الديار.

ومن الملاحظ أن المقتضى من ذكر الديار والآثار الخالية التي تعرضت للخراب والدمار هو مقتضى روحي؛ لجأ إليه الشاعر بذاكرته المليئة بالذكريات لذلك المكان المسكون في نفسه؛ لاستمالة القلوب نحوه، وشدّ الانتباه إليه، ومحاولة لاستعادة تفاصيله معهم.

1- ينظر: محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي ، المرجع نفسه، ص152.

ولهذا يرى عزالدين اسماعيل «إن قطعة النسيب التي كانت تتصدر القصيدة الجاهلية كانت تقوم على عنصرين أساسيين هما: الوقوف على الأطلال، وذكر المحبوب، وأن الشاعر لم يجمع بينهما عبثًا واعتباطًا في موقف واحد، أو صورة واحدة، بل جمع بينهما؛ ليرمز إلى الحياة والموت، فالخراب مشهد السكون الذي آلت إليه الحياة، والمحبوب مشهد الحركة التي عليها الحياة في مواجهة الفناء»(1).

ويرى الباحثُ أن رغم تأثّر الشاعر الفارسي بالمقدّمة العربيّة يحاولُ تقديم خصوصيّة ما للشعر الفارسي؛ يُسجِّل من خلاله الاحتفاء بالخّمْرة، والحديث عن بعض مظاهر حضارة بائدة، وكأني به يرثي حضارته كما يرثي صباه إلا أنّه يسيرُ على نهج الشعراءِ العربِ في وقوفهم على الأطلال، وذكر ما حلَّ بهذه الأطلال من الخرابِ والدمار، ثم ينتقلُ الشاعر بعد ذلك للحديث عن سبب خراب هذه الديار، فيقول(2):

منذ هجرتْ سُعدَى خيمَتَها وهجرتْ سَلمى حُجْرتَهَا
وهجرتْ لَيلى مَخْدَعَهَا كأنما هجرتْ روحي الجسدَ
لا يمكنُ أن أمرَّ بمنزلٍ دون أن أُعانيَ الضيق
حيث أتذكرُ الحبيبَ الحَجَرِيّ القلبِ
المعسولَ الشفاهِ الفضيَّ الذقنِ

يتجلى لنا ورود الأسماء التقليدية السابقة موجودةً أيضاً في الشعر العربي، وهي دليلٌ على أنها جميعاً عرائسَ الشعرِ، لا صلة لها بتجربةٍ حقيقيةٍ، وتتضح ورود

1- ينظر: عز الدين اسماعيل، النسيب في مقدمة القصيدة الجاهلية في ضوء التفسير النفسي، مجلة الشعر، العدد الثاني، السنة الأولى، القاهرة ، 1964م، ص 3-14 .

2- ينظر: محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، المرجع السابق، ص153، وينظر: د.محمد خاقاني، ملامح الوصل والفصل بين العربية والفارسية، مجلة الآداب الأجنبية، دمشق، العدد 127، 2006 .

مثل تلك الأسماء الألفاظ العربية في الشعر الفارسي عند الشاعر منوجهرى، والتي جاء بها من معلقة امرئ القيس، فيقول[1]:

معنبرات الذوائب، معقدات العقائص مسلسلات الغدائر على سجنجل الترائب

وعلى عادة الشاعر الجاهلي نجد الشاعر الفارسي (عنصري)[2] يبدأ قصائده بالنسيب، ثم ينتهي ببيت الانتقال، حيث نجده يبكي الأطلال ويصف ما آلت إليه بعد أن كانت موطنًا للحب والأحلام والسلام، فيقول[3]:

(إن قوص قزح مثل القوس، والدنيا كالفردوس، وقبس الوادي

كالطبول، وقفا نبك ما يقول)

ومن مظاهر الوقوفِ على الآثارِ، وقوف البحتري على إيوان كسرى، ووصفه وصفاً رائعاً، فيقول في قصيدته[4]:

صنتُ نفسي عمَّا يدنّسُ نفسي وترفَّعتُ عن جَدا كُلِّ جِبسِ

وقد حذا الشاعر(أفضل الدين بديل بن علي خاقاني شرواني)[5] حذو البحتري في وقوفهِ على الآثار، فيقول في قصيدته (إيوان المدائن)[6]:

ألا أيّها القلبُ المُعتبِرُ، فلتنظُرْ بِعَينِك،

1- محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، المرجع السابق، ص 87 .

2- هو حسن بن أحمد البلخي (357هـ - 431هـ) ولد في بلخ، بعدما اتصل بالسلطان محمود الغزنوي ثم السلطان مسعود، اشتهر وذاع صيته في شعره، له ديوان شعري باسمه .

3- حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، المرجع السابق، ص 213 .

4- ينظر: ديوان البحتري، شرح محمد التنونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1999 ، ص100 .

5- أفضل الدين بديل بن علي هو حسّان العجم خاقاني الشيرواني ت 595هـ/1198م، وكان يلقب ب (حقائقي) أما لقبه الشعري كان (خاقاني)، له ديوان يشمل على مجموعة كبيرة من القصائد والمقطوعات الشعرية الغزلية "تحفة العرافين"، ويعدّ من أكبر شعراء القصيدة في اللغة الفارسية .

6- ينظر: محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، المرجع السابق، ص181 .

ألا فلْتتّخِذْ ديوانَ المدائنِ مرآةَ عِبرةٍ،

في طريقِ دِجلةَ قِفْ مَرّةً بالمدائنِ،

ومن العين فاسكبْ دِجلةَ أُخرى على أرض المدائن،

فنهرُ دجلةَ نفسُه يبكي بكاءً،

تحسَبُ معه أن مائةَ دجلةٍ من الدمِ تنسابُ.

يصل بعد ذلك الشاعر إلى البيت الذي يتذكر فيه هذا القصر ، فيقول[1]:

هذا هو القصرُ،، الذي كان، ترابَ

عتباتِه منقوشاً بآثار خدودِ الرجال،

وكانت جدرانُه مزينةً بالنقوشِ!!

هذا هو الإيوانُ الذي كان فيه

من الملوك ملكُ بابلَ خادماً وشاه تركستان غلاماً!!

ومن الملاحظ بأن الشاعر يقفُ على الآثارِ، ويتذكر كيف كانت وما آلت إليه، ويعدُّ هذا من مظاهرِ الوقوفِ على الأطلالِ في الشعر العربي، ونلحظ تطور الوقوفِ على الأطلال إلى وقوف الآثار، وتأثير الأدب الفارسي في ذلك المجال.

وإذ ما رجعنا إلى الأطلالِ في الشعر العربي، نقفُ عند المقدمة الطللية في معلقةِ طرفة بن العبد، حيث يقول[2]:

لخولة أطلالٌ ببرقةِ ثهمدِ تلوح كباقي الوشمِ في ظاهر اليدِ

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم يقولون لا تهلك أسىً وتجلد

1- ينظر: محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، المرجع السابق، ص182 .

2- ينظر: أبو عبدالله الزوزني، شرح المعلقات السبع، المرجع السابق، ص61.

كأن حدوج المالكية غُدوة   خلايا سفين بالنواصفِ من ددِ

نلاحظ أنه قد وصف منزلَ صاحبتهِ (خولة) فأصبحت مبعثرة ومترامية الأطراف، وكيف أنّه رآه عافياً خالياً كأنّه بقايا وشم في ظاهر الكف، فاستوقف أصحابه كما وقف، ولكنهم خافوا عليه من الهلاك، فخففوا من أحزانهِ.

ويقابلُ هذه المقدمة في الشعر الفارسي قصيدةً للشاعر (منوجهرى الدامغاني)[1]، يقول[2]:

سلامٌ على دار أمِّ الكواعِب الفاتناتِ

ذواتِ العيونِ الدُّعْجِ والذوائِب من العنبر،

وعلى رسومِ الطَّللِ والديارِ الدَّوَارَس،

كأنهُ توقيعُ الأمير على صدرِ مَنْشورٍ.

فالقصيدةُ بكاءً على الأطلال، ووصف لما آل إليه منزل الحبيب، بعد أن كان موطن الوردِ والحبِ والأحلام، ولا يفوتنا القول إنّ منوجهرى هو أول من أدخل المسمطات[3] في الشعر الفارس من الشعر العربي، وفيما أرى أن الاختلاف بين شاعرٍ وآخر ربما قد يكون في ذكر التفاصيل والجزئيات الدقيقة لتلك الآثار والديار الخالية، فنرى من يلجأ إلى ذكر أسباب التغيير والتشويه لتلك المعالم والرسومات بشيء من التفصل، بينما نرى آخر لا يلجأ إلى ذكر التفاصيل الدقيقة كما فعل صاحبه.

1- أبو النجم أحمد بن قّوص دامغاني، هو شاعر إيران الشهير في مطلع القرن الخامس للهجرة، ويعد من أبرز شعراء الغنائية، ولد في أواخر القرن الرابع في دامغان وحصلت وفاته سنة 432هـ/1040م .

2- ينظر: محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، المرجع السابق، ص87، وينظر: د. حسين حمعة، مرايا للالتقاء والارتقاء بين الأدبين العربي والفارسي، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد97، 2006.

3- هي بناء القصيدة بحيث تخرج شطره منها أي وقت في قافيتهما على نظام القوافي المعروفة، للمزيد ينظر: محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، المرجع السابق،ص85 وما بعدها .

وهناك قصيدة أخرى للشاعر نفسه، فيقول[1]:

ألا أيّها الخَيّام اطوِ الخَيمَةَ،

فَربيئةُ الركبِ قد غادرت من مكان الرّحال المنزل،

ودقّ الطبلُ لأولِ مرةٍ مؤذناً بالرحيلِ،

وحُداةُ الإبلِ قد شدُّوا المَحملَ.

ثم ينتقلُ الشاعر إلى مجيء المحبوبة، وعتابها له على تركها وبكائها لفراقه، فيقول[2]:

لم أكن أعلمُ يا شبيهةَ الصنوبَرةِ الفضيَّة

أن سيزولُ هكذا سريعا هذا النهارُ،

قد غَفَلنا أنا وأنتِ، ولكن القمرَ والشمسَ،

–فوق هذا الفلكِ الدوارِ– ليس كلاهما بغافل

يا مثالَ الحُسنِ أقبَلي بوجهِكِ عليّ ولا تبكي،

فعودي يا جميلتي ولا تقولي:

لا يتحقق أمر للعاشقين

فلما رأت حبيبتي حالي

أمطرت من أهدابها وابلاً من الدموع

كأنها تمسك في كفها فلفاً مسحوقاً

1- ينظر: محمد وصفي أبو مغلي، دراسات في اللغة والشعر والنثر الفارسي، المرجع السابق، ص120.

2- المرجع نفسه، ص122.

وأخذت تنثره في مقلتيها

بعد ذلك يأتي الشاعر إلى بيت الانتقال، ويقول فيه[1]:

على عتبةِ الوزير السامية فقد ملك المعالي عاليها وسافلها

وهذا الغرض الأصلي من قصيدته وهو المديح، إذ تتدّرج صورة المديح عند منوجهرى بشكل عام في الإطار الذي وصفه شعراء العرب قديما كان أو حديثًا، ولعلّ المتتبع إلى جزئيات القصيدة السابقة لوجد أن التشابه واضحًا بين العربية والفارسية في المقدمات الطللية، فعادة الشعراء البدء بها ومن ثم وصف الناقة أو الرحلة أو المحبوبة، ومن ثم الانتقال والتخلص إلى الموضوع الرئيس من القصيدة، وهذا ما نجده عند شعراء العربية والفارسية معًا.

ويشير الباحث يوسف بوجله إلى أن الشاعر منوجهرى قد مزج في مدائحه بين الممدوح والطبيعة، فتأتي الصورة خلاّبة، فيربط بين ممدوحه وتألق الربيع، وكذلك الشمس والنجوم وغيرها، وهي صورٌ كثيرة عُرفت عن العرب قبله[2]، كما نجده يقحم بعض أسماء شعراء العرب أيًا كان الغرض من ذلك، فيقول[3]:

(كجلمود حطّه السيل من الجبل، من هنا تارة ومن هناك أخرى، وحينًا قدّما وحينًا أخرا)

وهو بذلك يقلّد امرأ القيس في معلقته[4]:

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

1- ينظر: محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، المرجع السابق، ص180 .

2- ينظر: يوسف بوجله، تأثر الأدباء الفرس بالأدب العربي في القرون الإسلامية الأولى "الشاعر منوجهري نموذجًا"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007م، ص 90 .

3- د. حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، المرجع السابق، ص 214 .

4- امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، تحقيق: أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط4،،ص 19 .

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطّه السيل من عل

وهناك رأيٌ لمحمد وصفي أبو مغلي حول مهاجمة الشعراء المنحدرين من أصل فارسي لأسلوب القصيدة، وبخاصّة البكاء على الأطلالِ حيث إن الهجوم على (بكاء الأطلال) لم يكن بهدف التجديد بل نوع من العنصرية، وأحياناً نوع من تملُقٍ للممدوح ولم يثمر التجديد؛ لأنّ أصحاب الهجوم ذاك ظلوا متمسكين بالنمط التقليدي للقصيدة كما لاحظنا ذلك في قصائدهم(1).

فبالعربية قال أبو نواس(2):

عاج الشقي على رسمٍ يسائله ورحتُ أسأل عن خمارةِ البلدِ

يبكي على طللِ الماضين من أسد لا درَّ درُّكَ قُلْ لي من بنو أسد

ومنْ تميمٌ ومنْ قيسٌ ولفَّهما ليس الأعاريب عند الله من أحد

ويقول الأمير معزي بالفارسية(3):

أيّها الجميلُ الذي تضرب الحور بك للحسن مثلاً

أيّها الغزالُ الذي يستحق الإنشادِ والغزل

لأجلك تفضل العجمُ على العربِ؛ لأن العجم تصفك

والعربُ تصف الطلل.

نلاحظ من خلال ما سبق، أن شعر أبي نواس كان صادراً عن حقد دفين وعنصرية، بينما شعر معزي كان صادراً عن تملقٍ رخيص للممدوح، على الرّغم من ذلك ظل أسلوب الفُرْس في بناء القصيدة جرياً وراء أسلوب العرب في ذلك،

1- ينظر: د. حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفرس والترك، المرجع السابق، ص 130 .

2- ينظر: محمد وصفي أبو مغلي، دراسات في اللغة والشعر والنثر الفارسي، المرجع السابق، ص46.

3- ينظر: محمد وصفي أبو مغلي، دراسات في اللغة والشعر والنثر الفارسي، المرجع السابق، 46ـ 47 .

مع الخصوصية التي حاول الشاعر الفارسي تقديمها فيما يخصّ حضارته.

ويقول محمد أبو مغلي: «وحتى عندما أراد الفُرْس التغيير في مطالع القصائد، وصاروا يمدحون مباشرة دون مقدمة، أو حينما غيرّوا في موضوعاتها، كان هذا أيضاً تأثيراً بالعرب الذين سبقوا الفُرْس إلى مثل هذا التجديد منذ أواخر القرن الثاني الهجري»(1).

ومن خلال دراستنا لبعض النماذجِ الشعريةِ، وجدنا تأثير الفُرْس بالشعراء العرب، حيث التزم الفُرْس بالبكاء على الأطلال في مقدمات قصائدهم، فالشاعر العربي كان يبدأ قصيدته بالوقوف على الطلل، ثم ينتقل إلى الغرض الأساسي من قصيدته سواء أكان الغرض مديحاً أم هجاءً أو غير ذلك، وكذلك نجد ذلك عند الشاعر الفارسي مع شيءٍ من التحوير والخصوصية التي ينماز بها الشعر الفارسي؛ حفاظًا منّه على الهويّة التي يقودها تجاه ذلك.

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة المقتضبة، تبيّن لنا مدى التأثر والتأثير بين العربيةِ والفارسية، وخاصّةً من خلال الترجمةِ بين الأدبين، التي أثرت في العلاقة بينهما، وكذلك الموقع الجغرافي الذي كان له الأثر الأكبر في الالتقاء بين الأدبين، ومن أهم العوامل كذلك دخول الفُرْس في الإسلام، وقد وقف البحث على هذه العوامل التي ساهمت في الالتقاء بين ثقافتين مختلفتين.

وكان الأهمُ وهو موضوع البحث وهو المقدمة الطللية بين العربية والفارسية، فتبيّن لنا التأثر الكبير للشعراء الفُرْس، وأخذهم من الشعر العربي، وكان في مقدمة الموضوعات المقدمة الطللية، فبدا لي تأثر الشاعر الفارسي بالشاعر العربي من حيث البدء بقصيدتهِ بقطع النظر عن موضوعها.

1- المرجع نفسه، ص47 .

ففي الشعرين العربي والفارسي تطابق واضح في نظام القصيدة المعهودة عند العرب منذ الجاهلية، والمطلّع على الشعرين سيجدّ بصورة أوضح وأبلغ مدى اقتفاء الشاعر الفارسي على منوال القصيدة العربية في شكلها ومضمونهها، ومدى سير شعراء الفرس على النظام التقليدي للقصيدة العربية منذ زمن بعيد.

ولا شك فيه أن النهج العربي في قصيدته الجاهلية بات واضحًا في الشعر الفارسي أيّما وضوح، وأن العديد من العوامل التي ذكرت في ثنايا البحث ساعدت على الالتقاء بين هذين الشعرين، فقد سبق العرب في وقوفهم على الأطلال ووصف الديار والدمن والبكاء، وما فيها من صور ودلالات وذكر تفاصيل تختلف من شاعر لآخر، فحاول الشاعر الفارسي السير على منوالها جميعًا، وإن كان يريد أن يحفظ خصوصية الفارسي إلا أنه لم يخرج من الدائرة الكلية للقصيدة العربية.

ولا يفوتنا القول إن رغم تأثر الشعر الفارسي بالشعر العربي فيما يخص موضوعنا (المقدمة الطللية) بأنواعها المتعددة، إلا أن الشاعر الفارسي لم تسعفه لغته في الوقوف على تجليات المقدمات الطللية؛ لما للعربية من خصوصية تتماز فيها عن اللغات الآخرى.

فاستطاع البحثُ الوصول إلى عنصر التأثر وهو تأثر الشاعر الفارسي، بعنصر المتأثَّر به وهو الشاعر العربي بالوقوف على الأطلالِ والآثار، من خلال مجموعةٍ من العوامل تسمّى في الأدب المقارن وسائل الاتصال، ذكرت في ثنايا هذا البحث المتواضع.

المصادر والمراجع

1. أبو عبدالله الزوزني، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، 1985م.
2. أبو عبدالله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط1، ج1.

3. أحمد محمد الحوفي، تيارات ثقافية بين العرب والفرس، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1986م.
4. امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، تحقيق: أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط4، د. ت.
5. بديع جمعة، دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت ،ط2، 1980.
6. حامد عبدالقادر، قصة الأدب الفارسي، مكتبة نهضة مصر، ط1، ج1، د.ت.
7. حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987.
8. حسين مجيب المصري، رمضان في الشعر العربي والفارسي والتركي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964م.
9. حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والفُرْس والترك، ، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2001م.
10. ديوان البحتري، شرح محمد التنونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1999م.
11. عبدالوهاب عزام: الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهية والإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ط1، 2012م.
12. عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث "دراسة تحليلية"، دمشق، ط2، 1986م.
13. علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1981م.
14. علي الزبيدي أثافي الطلل "دراسات في الشعر العربي القديم، دار بغداد، بغداد، ط1، 2014م.
15. محمد عبد الواحد حجازي، الأطلال في الشعر العربي دراسة جمالية، ، ط1، 2001م.
16. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مكتبة الأنجلو المصري، القاهرة، ط4، 1962م.
17. محمد غنيمي هلال، مختارات من الشعر الفارسي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1965.
18. محمد نور عبدالمنعم، دراسات في الشعر الفارسي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1976م.
19. محمد وصفي أو مغلي، دراسات في اللغة والشعر والنثر الفارسي، مطبعة جامعة البصرة، د.ط.
20. يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، بيروت، ط4، 1985م.

الأبحاث والرسائل

1. حسين جمعة، من القواسم المشتركة بين الأدبين العربي والفارسي، مجلة فصلية، دمشق، العدد 97، سنة 2005م.
2. حسين حمعة، مرايا للالتقاء والارتقاء بين الأدبين العربي والفارسي، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد97، 2006م.
3. عز الدين اسماعيل، النسيب في مقدمة القصيدة الجاهلية في ضوء التفسير النفسي، مجلة الشعر، العدد الثاني، السنة الأولى، القاهرة ، 1964م.
4. محمد خاقاني، ملامح الوصل والفصل بين العربية والفارسية، مجلة الآداب الأجنبة، دمشق، العدد 127، 2006م.
5. يوسف بوجله، تأثر الأدباء الفرس بالأدب العربي في القرون الإسلامية الأولى "الشاعر منوجهري نموذجًا"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2007م.